الباب الثامن

القـــدوة

"ما من أحد مس محبرة إلا وللشافعي عليه منة"

أحمد بن حنبل

الفصل الأول

القدوة

كانت حياة محمد بن إدريس الشافعي ملحمة معلمة، بينت للمسلمين أن الدين ينصره علم وعمل، وأن للعمل الجزاء الأوفى.

ولقد شجت جبهة الرسول – عليه السلام – في صميم المعركة يوم أحد. وسال الدم حتى أخضل لحيته. وكسرت رباعيته. وأدميت شفتاه. ودميت وجنتاه، وغاب الحلق في وجنتيه. وجعل الدم يسرب كما يسرب الشن. ليدل على أن صاحب الرسالة أول العاملين في سبيلها وأشجعهم.

ولما شقت الصخرة يوم "الخندق" على كل من يليها من الناس، ضرب بمعول سلمان ثلاث ضربات، فانصدع الحجر. فهو كان بين العاملين يحفر، كما كان بين الصناديد الأبطال.

سئل عليه الصلاة والسلام. أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال "أدومها وإن قل. فالقليل مع الديمة كثير".

وكان الشافعي إماما دائم العمل، يعلم الناس ويقدم لهم أدلة الأحكام – فقدم حياته، بتمامها، دليلا على الاجتهاد بالفقه، والجهاد بفضائل الإسلام. فصار مثلا أعلى في العمل. بالكفاح اليومي في سبيل اله، وبالتسيار ليل نهار، لا يثنيه الزمهرير الذي يهرأ الدب، ولا تضجره شمس الهواجر. ورمال الصحراء وسني، يوقظها وخد الإبل وأراجيز الحداة، أو يقظى، تتلظى كجمر يحترق. وبالسهر المضني على مدار العمر. وبالقعود إلى التلاميذ في شتى عواصم الإسلام، لا يبرمه خرق الخصوم، ولا يسئمه سقمه. وبالعبادة والزهادة، والتقشف الذي لم يشبع

صاحبه قط، وبالعطاء إذ يبذل المال، تفاريق إلى يمين وشمال، حتى إذا تأرجح مصير عنقه بين السيف والنطع، كان في ذروة الجسارة في وجه الخليفة،

وكان كذلك، في حلق مكة وبغداد والفسطاط، وفي كل مكان.

والأسماع المصيخة لا تصدق القول إلا أن ترى القائل يعمل.. وأن تبصر به يبدأ بنفسه، وإلا فهو ينعق بما لا يسمع، أو يكيل الريح بأجواز الفلاة..

بعث سلمة بن قيس رسولا إلى عمر يستفتيه فيما يصنع إذ كثرت غنائم جيشه. قال الرسول:

فأتيت أمير المؤمنين وهو يغدي الناس. متكئا على عصاه، كما يصنع الداعي، وهو يدور على القصاع ويقول: يا يرفأ – مولاه وخادمه – زد هؤلاء لحما. زد هؤلاء خبزا. زد هؤلاء مرقة. فلما دفعت إليه قال اجلس. فجلست في أدنى الناس: فإذا طعام فيه خشونة.. طعامي الذي معي خير منه!

فلما فرغ الناس قال: يا يرفأ، ارفع قصاعك. ثم أدبر. فاتبعته.. فإذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من آدم محشوتين ليفا، فنبذ إلي، بإحداهما فجلست عليها.. فإذا ببيت عليه ستير فقال: يا أم كلثوم غداءنا.. فأخرجت إليه خبزة بزيت فيها ملح لم يدق. فقال: لأم كلثوم: ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا؟ فقالت إني أسمع عندك حس رجل. قال نعم ولا أراه من أهل البلد. قالت أم كلثوم: لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كاس ابن جعفر

امرأته! قال عمر أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم، بنت علي ابن أبي طالب، امرأة أمير المؤمنين عمر؟..

فقال: كل. فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا..

قال الرسول فأكلت قليلا وطعامي الذي معي أطيب منه – وأكل عمر.

كانت بنت خليفة الغد، وزوج خليفة اليوم – وهي في ثيابها هذه – بنت علي، وزوج عمر.. أما الذين كسوا زوجاتهم كما تحدثت زوجة الفاروق فلم يصيروا خلفاء راشدين!

***

تابع الإمام العظيم دروس السلف العظيم. فالآثار السابقة دروس له، لتصير الدروس منه. ولقد نذر نفسه لتكون حلقاته، وكتاباته، وحياته، كالمواقع الحاسمة في الإسلام.

وكان من آياته توفيقه تعاظم أثره في تلاميذه، حتى ليساجلوه ويسامقوه في التضحيات. وبهذا استمر التيار في التدفق، وأضيفت إليه القوة بتعاقب العمل فثبت وتعمق، فتوارثته الحقب. والفقه العظيم لا يرقى إلى مستوى المذهب إلا بالعمل العظيم ولم يكن السلف كما يقول "ابن القيم" يطلقون اسم الفقه إلا على العلم يصحبه عمل. وهذا بعض المعنى في قول صاحب الشريعة عليه السلام: "أفضل العبادة الفقه".

والفقيه العامل هو الذي عناه ابن عباس يوم قال: فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد.. ولهذا كانت حياة الأئمة في ذاتها فقها معلما.

وفي زعامة الفكر تهوي الأفئدة إلى الزعيم ذاته، كمثل نظرياته. وكلما جلت القدوة، عظم الطالب والمطلوب. والأفكار الكبيرة تتراءى للآخرين وللاحقين أدنى وضوحا كلما بعدت عن الأصل، فتعين أن يسمو الأصل عن الجدل، لتبقى له إمامة الحاضر وزعامة المستقبل، ويرفعه الفعال النابه من محيط الناس إلى مدارات يهتدي بها المدلجون دون أن يبلوغها.. قال عليه السلام إن "مثل العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء: يهتدى بها".

من أجل ذلك رفض البويطي – خليفة الشافعي بمصر – أن يقول بخلق القرآن عندما اسر إليه الوالي النصح: (قل فيما بيني وبينك). فقال كلمة تليق بإمام: (إنه يقتدي بي مائة ألف لا يدرون المعنى).

وازداد تصميما وعزما فقال: (لئن أدخلت عليه – يقصد الخليفة – لأصدقنه، ولأموتن في حديدي هذا. حتى يأتي قوم يعلمون أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم).

قال مروان آخر خلفاء بني أمية لعبد الحميد بن يحيى: قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تحوجهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي. فقال عبد الحميد: إن الذي أشرت به علي أنفع الأمرين لك وأقبحهما. وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك وأنشد:

أسر وفاء ثم أظهر غدرة فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

وانهزم مروان. وترك شبه الجزيرة العربية إلى مصر. واختبأ زعيم الكتابة العربية عند زعيمها الآخر ابن المقفع. ففاجأهما الطالبون قالوا: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهما: أنا – خوفا على صاحبه. وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال: ترفقوا بنا فإن كلا منا به علامات. فوكلوا بنا بعضكم ويمضي بعض آخر يذكر العلامات لمن وجهكم. ففعلوا. وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله.

كان عبد الحميد عظيما مع الخليفة ومع الصديق. وكان ابن المقفع عظيما معه وبمقداره.

والقدوة بلاغة الزعماء. فما بالك بزعامة البلغاء. ناهيك بالأئمة.

***

كان الشافعي بذاته قطعة من صميم الإسلام. فهو كله قرآن وسنة – ونفس عربية: جماع صفاتها الشجاعة والنصفة.

والعروبة فصاحة وفروسية. علمته الفصاحة انضباط التعبير والتقدير ووضوح التفكير. وعلمته الخيل والنضال الدقة والاعتدال، والتوازن بإمساك العنان ووضع الميزان.

ومن الشجاعة اجتهد وأوجب الاجتهاد. وأعلن الاستقلال. ونهى عن التقليد. وعمل فأحسن العمل. والإيمان قول وعمل.

ولما خاطب المسلمين بارئهم بقول: ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾. قال: ﴿ **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾. فهو تعالى قدم الأمر والنهي. وهذان عمل

باليد والقلب واللسان. فالقول والعمل لمصلحة الجماعة شريعة الإسلام. وبشريعة الإسلام، لا بشيء سواها، كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس.

بهذا ورد أئمة المسلمين الأربعة حياض الهول واحدا إثر واحد. وكانت المحنة درسا تناقلوه. سبقهم به سيد المرسلين، ليدل على أن العمل أصل إسلامي أول، وأن من لم يتعمر وجهه في سبيل الله، أدنى في الفضل إن كان له فضل.

ولقد علم الشافعي تلاميذه، من الأحياء، وممن لم يحيوا بعد، فانعكست أضواؤه على القرب والبعد. كمثل ما انعكست أضواء عمر بن الخطاب في حفيده عمر بن عبد العزيز، اجتهادا في العلم وزهادة في الدنيا، وهي ملك في يده لأعظم دولة، فقومت ثيابه وهو يخطب باثني عشر درهما. ولما أبطأ يوما عن الجمعة عوتب في ذلك فقال: إنما انتظرت قميصي. غسلته حتى يجف [٨٧]. وكمثل جعفر الصادق صار إماما في شتى أبواب العلم، وإماما في التقى والسماحة مثل جديه معا: علي وأبي بكر.

ولقد تذيع أفكار العظماء في حياتهم فتكون نجاحا للعصر، لكن استمرارها بعدهم آية على أن قانون الإنسانية هو التطور المستمر. وظهورها في التضحيات بعد مماتهم، دلالة على ارتفاعها إلى أن تكون قيما عليا للبشر. وإنها لتبلغ شأوها الأعلى عندما تنشق من الطريق

---

(٨٧) خلف عمر بن عبد العزيز أحد عشر ابنا فورث كل ابن نصف وربع دينار – قال لهم إذ حضر الموت: ليس لي مال فأوصي فيه. يا بني. إني خيرت نفسي بين أن تفتقروا إلى آخر الدهر وبين أن يدخل أبوكم النار. فاخترت الأول. يا بني عصمكم الله. وقد وكلت أمركم إلى الله الذي نزل الكتاب. وهو يتولى الصالحين.

الواحدة طرائق قاصدة، وعندما يهيئ المعلم العظيم للإنسانية معلمين عظاما آخرين. ولكل أجره. قال عليه الصلاة والسلام "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا".

***

خلف الأستاذ للتلاميذ ما يشبه الغيث – فسالت أودية بقدرها، في كل فن، من فقه وعلم ولغة وفلسفة عمل.. وحسبنا هنا بعض الأمثال:

كانت فراسة موفقة من الشافعي أن يقول: "تركت بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أعبد من أحمد بن حنبل". فيصير أحمد رابع الأئمة. وأن يوصي بأن يخلفه في مصر (البويطي)، فيصير البويطي أستاذا وبطلا في المحنة.

وليس غريبا أن يقف التلميذان الموقف الواحد، في أكثر من حادث واحد، وكل منهما في قارة من القارات، فإنما نهلا وعلا من ينبوع واحد، رأى الناس أثره.

وتلمذ للشافعي أبو ثور والكرابيسي، فصار لكل منهما مذهبه الخاص به. وتلمذ له عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فصار إماما للمؤرخين..

وأصبح الإمام الطبري كأستاذه الروحي إمام المفسرين والمؤرخين، وصار له في الفقه مذهبه الخاص به.

وكذلك صار تلميذه داود الظاهري صاحب مذهب خاص، وكان قبل الأخذ بمذهب الشافعي حنفيا مثلما كان أبوه، وأهل بيته. وكذلك ابن حزم تعصب للشافعي تعصب داود، ثم صار إماما ظاهريا مثل داود.

وتلاقت موجة الصوت الخالد مع الفخر الرازي فصار إماما في التفسير والفقه والفلسفة الدينية، ومع الإمام الغزالي فنتجت فقها وفلسفة عالمية، ومع الجرجاني فصار صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وتلاقت مع آخرين كثيرين فصاروا طلائع.

وكانوا جميعا أساتذة في التعبير والجدل.

"والرجل العظيم – كما يقول "سينيكا" – ينفع بعمله، وينفع بقوله، وينفع بمجرد أن يمشي على الأرض".

وأضحى فقهاء المذهب الشافعي في الطليعة من فقهاء الإسلام – والعالم كله – إنتاج وقدرة، وقوة حجة. قيل ألف واحد منهم (البيهقي) ألف كتابا في نصرة المذهب، منها مجلدتان في مناقب الشافعي.

وبقيت المقاولات أو المناقدات، بين الشافعية والحنفية بضاعة مزجاة بين المتفقهين. فآل إلينا من عملهم هذان المذهبان العظيمان. فيهما تضحية وتعبد، وفيهما سماحة أهل السنة. فآمن التلاميذ بهما ومنهم المتعصبون: لنرى ملكين، أو والدا وولده، هما العادل سيف الدين أيوب صاحب دمشق وابنه عيسى – شرف الدين – يسأل أولهما ثانيهما: لماذا اختار مذهب أبي حنيفة، وأهله شافعية؟ فيقول ملك الغد: أترغبون عن أن يكون فيكم مسلم واحد!

ولم يقتصر التعصب على قلة نادرة ممن تفقهوا على علماء المذهبين، بل كان التعصب وما يزال طابع كل متخلف أو جامد. ولو فقهوا لكان لهم في سماحة الأئمة أسوة حسنة.

وانطلق كثيرون، للدفاع عن السيادة التي أعادها الشافعي للمحدثين. فقاموا بتجميع الأحاديث وتدوينها، بطرائق علمية مثل طريقته، من اشتراط الشروط في الرواة والروايات. فلم يعد كافيا أن تكون الصدور وعاء للنصوص، ولم يعد كافيا ما جمعه ابن شهاب الزهري وابن لهيعة في القرن الثاني، ولا صحيفة همام ابن منبه المسماة بالصحيحة، ولا صحيفة عبد الله بن عمرو المسماة "بالمصادقة" أو صحائف جابر بن عبد الله أو سعد بن عبادة أو أسماء بنت عميس زوج أبي بكر الصديق.. لقد آن أن تدون آلاف الأحاديث مثلما دون الكتاب العزيز، لتكون نصوصها مصادر للأحكام الشرعية، في يسر مسعف وغزارة تيسر نشرها وتمكن من الاحتجاج بها.

وكانت وفاة الشافعي المبكرة حافزا للمبادرة، حتى لا تضيع انتصاراته. فنهدت. للعمل ثلة من العباقرة يتصدرهم أحمد بن حنبل. وتبعه أصحاب الكتب الستة، وفحول آخرون، فجمع أحمد مسنده الأعظم، وجمع الآخرون مسانيدهم وصحاحهم وإن تنوعت طرائقهم – فدلوا بنجاحهم في جمع الأحاديث اصح جمع وأدقه، على أن الأمة الإسلامية قادرة على بلوغ مقصدها بفيوض قوتها من الرجال والعقول والوسائل. وأن الحنيفية السمحة لا تخذل أصحابها في أي من مواقفهم. وإنما يخذلهم تخلفهم عن التمسك بعوامل القوة فيها.

وكان للبخاري (١٩٤ – ٢٥٦) قصب السبق في هذا المضمار فقدم للأمة أكبر كتاب عني به المسلمون بعد القرآن، إذ جمع "الجامع الصحيح" في ستة عشر عاما لم يضع فيه حديثا إلا بعد أن اغتسل وصلى ركعتين واستخار الله في وضعه. فبلغت أحاديثه ٧٣٩٧ حديثا بالمكرر وبلغت أحاديث مسلم (٢٠٤ – ٢٦١) ٧٥٧٥ بالمكرر. وبلغت سنن أبي داود (٢٠٢ – ٢٧٥)

٤٨٠٠ حديثا منتقاة من ٤٠٠ ألف حديث. وجاراهم آخرون منهم الترمذي (٢٠٩ – ٢٧٩) والنسائي (٢١٥ – ٣٠٣) وابن ماجة (٢٠٧ – ٢٧٣). ونشأ علم "مصطلح الحديث" "وعلم الجرح والتعديل". وسائر علوم الحديث التي أوصلها البعض إلى خمسة وستين علما.

***

حمل ابن حنبل ألوية السنة المظفرة التي خلفها أستاذه في السماء. وكان من دوره المقدور له أن ينصرها بالعمل إلى جوار العلم، فكفر، كمثل أستاذه، القول بخلق القرآن، فامتحن، ورسف في الأصفاد، وسجن وعذب، وضرب، وكان يتفادى الحديث عن المحنة. ولم يمدد إلى السلطان بسبب. وصفح الصفح العظيم عن العادين عليه، جريا على السنة. فلم يك يرضى أن يعذب فيه مسلم.

ولا ينقص مجده، بل يزيده، أن يضم بعضه إلى أستاذه. أو أن يصنع البعض بعض صنيعه فغنما هم على آثاره. وتلك آية النجح في عمل الأئمة. وكما يقول، فلمنج: (إن مفخرة العمل العظيم أنه يشق الطريق لأعمال أعظم، تغطي أضواؤها على ضوئه، فإن غاية البحث العلمي هو تقدم المعرفة).

قال أحمد بن حنبل: خمسة أدعو لهم في دبر كل صلاة؛ أبواي والشافعي وأبو زرعة وآخر نسي الراوي اسمه. وهذا الوفاء لأستاذه يقابله وفاء زميله إسحاق ابن راهويه له، فيخصه بثناء لا تنقصه الغلواء، حيث يقول (لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام).

بلغ من أخذ أحمد بالسنن أنه قال: (ما حدثت حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا عملت به حتى مر بي أن النبي احتجم وأعطى أبا طيبة دينارا.. فأعطيت الحجام دينارا حين

احتجمت). تجيئه الهدايا آلافا مؤلفة فيردها.. ولما قدم عليه خراساني يحمل هدية من رجل ميت خمسة آلاف درهم. سأله هل بينه وبينه قرابة؟ أو....؟ قال: لا.. قال ضمها رحمك الله.. وبعد مدة سأل ابنه: كم يوما مضت مذ كان عندنا الخراساني؟ قال واحد وستون يوما.. قال هل جعتم فيها؟

حج فيما حج ثلاث مرات ماشيا.! وأنفق في بعض حجاته عشرين درهما. ولما استضافه الخليفة المتوكل كان كعهده لا يأكل. بل كان في كل ثلاث ليال يستف حفنة من سويق ويقول: "الطبخ طعام المطمئنين. مكث أبو ذر ثلاثين يوما لا طعام له إلا ماء زمزم".

وقد يرى لابسا جبة خضراء فيها رقعة بيضاء من صوف. وربما كان سراويله فوق كعبيه. وكان خفه يبقى خمس عشرة سنة مرقوعا برقاع عدة. ويقول: (ما أعدل بالفقر شيئا. أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء) ويقول وكأنما يتعبد: حسبي كسرتي وملحي.

***

تتحصل فلسفة ابن حنبل فيما رواه الراوي: أتيت أبا عبد اله، آخر ما رأيته، فخرج فقعد في دهليز. فقلت يا أبا عبد الله كنت أراك تقف عند أشياء في الفقه بان لك فيها قول؟ قال: هذا زمان مبادرة. هذا زمان من عمل.. وأخذ في نحو هذا من الكلام إلى أن قمنا.

وهو يعيش من كسب يده. ربما أخذ القدوم وخرج إلى دار السكان يعمل. وكان يأمر أبناءه أن يختلفوا إلى السوق ويعملوا في التجارة.

فالعمل واجب إسلامي.. كان الأنبياء يؤاجرون أنفسهم، وكمثلهم كان أبو بكر وعمر وعلي، وعمل عثمان بالتجارة. وذات يوم سأل رجل عليا عن إزار غليظ عليه فقال: اشتريته بخمسة دراهم. إن أربحتني فيه درهما بعته.

وقال عمر: (كتب عليكم أن يأخذ أحدكم ماله فيبتغي فيه من فضل الله عز وجل فإن فيه العبادة والتصديق. وأيم الله: لأن أموت في شعبتي رحلي وأنا أبتغي بمالي من فضل الله، أحب إلي من أن أموت على فراشي).

وما قرأنا أحدا عير أحدا بصناعته.

قال علي بن المديني (١٦١ – ٢٣٤) إن الله تعالى أيد هذا الدين بأبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة.

هكذا كانت المحنة! كأنها محاولة للردة. وكان ابن حنبل كأبي بكر! ولكن أيهما أعظم؟ الصبر والثبات أم العفو؟ فلقد عفا ابن حنبل عن المعتصم، الذي أمر بضربه!! قال: "ما خرجت من داره حتى جعلته في حل"!! وكر قول الشعبي –: إن تعف عنه يكن لك من الأجر مرتين.. بل ذكر: وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله.

جملة هذا الخلاف العقيم الذي تسبب فيه "أصحاب الكلام" – وكانوا قد ألفوا الفكر اليوناني واللاهوت المسيحي في دراساتهم للمترجمات – والذي لم تكن له فائدة عملية إلا التفرقة وإيذاء العلماء. وكأنما كان نقمة سلطها على المسلمين أعداء الدين: أن المعتزلة تقول "إن الله أنزل القرآن. ومؤدى ذلك أنه خلقه. "فالقرآن مخلوق". وأهل السنة يرون أن القرآن قديم حتى لفظنا به. وأن القول بالخلق بدعة لم يقل بها السابقون. ولا داعي له، لأنه يضعف العقيدة وهي

تدور حول معاني القرآن. ولذلك لم يجب بعض المسئولين عن خلق القرآن واكتفوا بأن قالوا: كلام الله. ولما أجاب "بالخلق" سعدويه خرج من دار المعتصم يقول: يا غلام. قدم الدابة. فإن مولاك قد كفر. قيل له ماذا فعلتم؟ قال: كفرنا ورجعنا.

وربما كان ممكنا أن يبقى الأمر مجادلات فلسفية بين الفريقين. لكن التحرز طابع أصحاب السنة. أما المعتزلة فالتطرف التجريدي طابعهم، والشدة في الجدل من خصائصهم.. يترنم الصاحب بن عباد (٣٨٥) بالشعر، وهو من أئمتهم، فيعلن معاسرة المعتزلة، حتى في أشواقه! فيقول.

تمكن مي الشوق غير مسامح كمعتزلي قد تمكن من خصم!

أظهر المأمون القول "بخلق القرآن" في مجالسه سنة ٢١٢ ثم بدأ يمتحن الناس في سنة ٢١٨، فبعث للولاة أن من قال غير ذلك لم يصلح لقضاء ولا شهادة ولا وظيفة! وامتحن الفقهاء بنفسه فأجابوه تقية، فردهم إلى الوالي ليقولوا أمام الناس فيخلي سبيلهم – ثم أمر الوالي بامتحان جماعة فأقروا بأن القرآن مخلوق، إلا ابن حنبل ومحمد بن نوح فأشخصهما إلى المأمون.

ومات المأمون. وخلفه المعتصم. ومات محمد في الطريق، وأعيد أحمد إلى بغداد يرسف في الأقياد.

وكان أحمد بن أبي داؤد زعيم المعتزلة سلطة باطشة تحرك المعتصم، والمعتصم بطل حرب، سيفه أصدق إنباء من الكتب. كما قال فيه أبو تمام. لكنه كان قليل البضاعة من العلم – أراد أن يندد بوزيره أحمد بن عمار الخراساني فقال يصف نفسه: خليفة أمي ووزير عامي!

فلما كان رمضان سنة ٢١٩ مرض أحمد بن حنبل. ومكث في السجن وعليه القيد. يناظره كل يوم رجلان. وجاءه رسول المعتصم يناظره، وهدده الوالي.. وكان يتسلل إليه في السجن قوم منهم عمه إسحق بن حنبل يطلبون إليه أن يقول، تقية، كما توقى غيره من العلماء، فيقول: "إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل، فمتى يتبين الحق"؟ فذكروا له أحاديث التقية فقال كيف تصنعون بحديث خباب: "إن من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه"؟ فيئسوا. وضربوه.. وكان سجنه ثمانية وعشرين شهرا. وكان ضربه نيفا وثلاثين سوطا [٨٨].

جاء رجل يقول لصحبه: قوموا ننصر هذا الرجل. قال آخر: هذا مقام النبيين، لا أستطيع أن أقومه.

ولما وقف البويطي الموقف العظيم في المحنة كتب إلى الربيع بمصر: (إني لأرجو أن يجزي الله عز وجل أجر كل ممتنع في هذه المسألة لسيدنا الذي ببغداد) يعني زميله أحمد بن حنبل.

ولقي واحد ممن ضربوا ابن حنبل حتفه فاستغفر له وعفا عنه. وكان يقول: العفو أفضل. وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك؟

وولي الواثق الخلافة (٢٢٧ – ٢٣٢) فبعث إليه (لا تساكني بأرض ولا مدينة أنا فيها، فاذهب حيث شئت من أرض الله) فاختفى بقية حياة الواثق.

---

(٨٨) ورد وصف الواقعة في "كتاب أبي حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام" للمؤلف. انظر الطبعة الرابعة طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية صفحة ٢٠٣ – ٢٠٤.

ثم ولي المتوكل ففرج عن الناس سنة ٢٣٤ وأبطل هذه البدعة. وتقرب بالعطايا إلى ابن حنبل. فكان يردها أو يفرقها في المعوزين حتى لا تدخل داره. وظل على صيامه وقيامه. يشتري له الشحم بدرهم، فيأكل منه شهرا.

وضرب الدهر. ودار الدور. فبعث الخليفة يسأله: ما تقول في ابن أبي داؤد وفي ماله؟ فلا يجيب في ذلك بشيء.

وستصنع السماء نفس الصنيع في ابن مخلوف القاضي الظالم لابن تيمية – تلميذ ابن حنبل – عندما تتغير الحال فيطلب السلطان من ابن تيمية كلمة ضده! فيعفو. ولا يقول كلمة.

هذه مياسرة أهل السنة وعفوهم وتلك معاسرة المعتزلة.

وعزل الخليفة ابن أبي داؤد. وبيعت عليه ضياعه. ومات مفلوجا سنة ٢٤٠.

والذي أصاب ابن أبي داؤد من السلطان الذي جيش غضبه على أهل السنة ببغداد أصاب مثله في سنة ٢٣٧ الرجل الذي صنع بمصر مثله، محمدبن أبي الليث، فالسماء تمهل ولا تهمل.. وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم "من أعان ظالما ابتلي به".

وفي سنة ٢٤١ توفي الإمام أحمد بن حنبل. وحضر جنازته ألف ألف وثلثمائة ألف وهذا عدد من المسلمين لم يجتمع مثله للصلاة على ميت.

لكأنما كان الشافعي يبايع لتلميذه العظيم يوم قال: "فإن من أدرك علم الله في كتابه نصا واستدلالا، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه وفاز بالفضيلة في دينه ودنياه وانتفت عنه الريب، ونورت في قلبه الحكمة، فاستوجب في الدين موضع الإمامة".

الفصل الثاني

العروبة واللغة العربية

تفردت اللغة العربية بين سائر اللغات بخصائص يهمنا منها الآن خصيصتان بارزتان:

الأولى: أنها أقامت دينا يدين به اليوم مئات الملايين – وستدين به البشرية ما تعاقب الثقلان.. فهي لغة القرآن، مصدر الشريعة في العقيدة والمعاملات. في كل معنى من معانيه هدى للمسلمين. وهو الذي نقل العرب من الجاهلية الأولى إلى السيطرة على العالم المعروف في سنين، وإلى الانتفاع بخيرات الطبيعة، وبسائر أسباب المدنية، التي يعتز بها الإسلام.

والفصاحة العربية، أو البلاغة العربية أداة فهم هذا الكتاب. فكل قصور في اللغة مانع من فهمه حق الفهم. وبهذه الوشيجة بين اللغة والكتاب الذي نزل بالدين، أصبحت وثيقة السبب بالدين.

والثانية: أن هذه اللغة أقامت أمة بتمامها. فالأمة العربية أو القومية عمادها اللغة العربية التي تتكلمها، وحدها، شعوبها كلها، ولو فرقت بينها فوارق الخلافات أو مواقع القارات. وتجئ على أثرها عوامل القومية قاطبة، من وحدة التراب، إلى وحدة التراث، إلى وحدة الموقع، إلى وحدة الجنس، إلى وحدة المصلحة، إلى وحدة الدين.

ولما صنعت اللغة الألمانية الوحدة الألمانية، كان فلاسفتها يهيبون بها – كما أهاب فخته – (إن اللغة تلازم الفرد في حياته وتمتد إلى أعماق كيانه وتبلغ أخفى رغباته وخطواته. إنها

تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين. إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان).

واللغة العربية عروة العرب الوثقى. وحدت لسانهم وجمعت أفكارهم. وغلبت بعظمتها، غلبة الإسلام بعظمته. فمع أنه لا إكراه في الدين ولا في اللغة فقد أسلم أهل البلاد المفتوحة، وتكلم العربية غير المسلمين. وترجمت إليها الكتب الدينية، لغير المسلمين وإنما استعرب لسان السكان ليسر اللغة، وثروتها، ومطاوعتها لفنون الحضارة. واستعرب لسان العلم العالمي نحو عشرة قرون، فلما شرع أهل أوربة في القرون الوسطى يتعلمون ويترجمون، ترجموا في اللغة العربية علوم العرب وعلوم اليونان أجداد أوربة.

كانت اللغة اللاتينية في أوربة تنفرد بأنها لغة الرسائل العلمية – لو وجدت – حتى القرن السابع عشر. وكانت أول ترجمة علمية إلى الإنجليزية ترجمة كتاب إقليدس سنة ١٥٧٠م في القرن العاشر للهجرة. فثمت قرون عشرة مسلمة للغة العربية، لا يشركها شريك من اللغات المعاصرة الآن.

واستبقت اللغة العربية قوتها وقوة الفقه العربي في معاهد الأمة العربية وأصقاعها لأن العرب بلغتهم أقدر على فهم نصوص الكتاب العزيز والسنن والآثار، وهي مصادر الدين، وبهذا أصبحت الأمة العربية نواة للأمة الإسلامية.

فكل وهن يطرأ على اللغة العربية، يطرأ على العرب وعلى المسلمين، وكل نشر لها أو دعم لأساليبها، بتأليف أو خلق أغراض أو تحسين استعمال أو غير ذلك، هو تمكين مزدوج للإسلام وللأمة العربية.

والتعبير بلهجة محلية، هو في جملة أمره تفكير محلي، ورجوع القهقرى، إلى تعبير السليقة أو القبيلة بعد إذ ترقى، فصار تعبيرا على مستوى الأمة، بلغة عامة. أو هو تجسيد لفوارق، أو إبقاء على تقسيم. وهو، في كل حالاته، إهدار لقيمة العملة الغالية التي تتعامل بها الأمة العربية مع العالم، كقوة من قواها العارمة، وصور لوجهها الواحد بين الأمم. أما اللهجات المحلية فتجعلها أشتاتا – أمما.

اللغة – بعد العقيدة – أعظم القيم للأمم. هي ثمرة المجتمع. والمجتمع ثمرتها. فالناس تفكر بلكمات غير منطوقة أي باللغة. واللغة الغنية بكلمات المعرفة والفضيلة والفن، تحدث خصبا فكريا وتوجيها حسنا في السلوك، وفنا. والكلمات معان وشعارات وأفكار. والإنسان يفهم فيتكلم، وينمي الكلام فهمه، فتصوغ لغته فكره. ولقد يمكن التفكير الغريزي بغير كلمات. لكن التفكير الكبير أو المتحضر، يجري بكلمات اللغة التي تسع الفكر، كدأب الجسم والروح، كلاهما يسع الآخر ويصنعه. والناس تفكر تفكيرا عاليا باللغة العالية – وعلى قدر اتباعنا للغة العربية يتكون انطباعنا العربي وارتباطنا بمصادرنا الدينية.

وكان الشافعي في حثه على العلم بها، ويجعله أصحابها متبوعين لا تابعين، وباستخراج كنوز الفقه من خلالها، رائدا في هذا المجال أيضا، للتجمع الإسلامي على منابعه الأولى.

***

واللغة وآدابها أداة لدراسة القانون. وما تزال جامعات العالم تقرن الدراسة الأدبية بدراسة القانون. ولقد نهج الشافعي هذا المنهج بهدى نفسه، وهو لم يكد يشب عن الطوق، أو كان قد شب وشيكا، وسيجري على آثاره فيها طلاب الفقه وعلماؤها جيلا بعد جيل.

والزمخشري، من خوارزم، يقول.

"ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها – حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه – لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج. وزيفا عن سواء المنهج. والذي يقضي منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم. وذلك أنهم لا يجدون علما من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وتفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع".

واللغة العربية لا تنزل من المسلمين أو من العرب منزلة الإغريقية أو اللاتينية من أمم أوربة وأمريكا، مصدرا تاريخيا. أو مرحلة من مراحل نماء الأمة. فاللغتان الأخريان، ليستا لسانا الآن لليونانيين أبناء الإغريق أو للإيطاليين من أبناء الرومان، وإن كانتا تدرسان كالدراسة الأثرية.. فاللغة العربية يتعبد بها نحو أربعمائة مليون في كل يوم وجوبا في الصلاة. يقرءونها إذ يقرءون القرآن، وإذ يتدارسون شئون الدين. وهي اللغة الرسمية لمائة مليون من العرب، هي مظهر اعتزازهم، وأغلى حلية عندهم، معبرين أو مفكرين.

والدهر في خدمتها. كلما طال عليها العمر، اتسع أفقها وطاوع أسلوبها ونحوها وصرفها واشتقاقها العلوم والفنون، بثراء لفظي، لا يتناهى، جدة وإشراقا وسعة، وباشتقاقات وافرة مبدعة، من الأفعال والأسماء التي تنشئ المعاني وتربطها بأصل الكلمة فتزيدها عذوبة وقدرة ووفرة.

والأمة بتمامها لا تجتمع على شيء قدر اجتماعها على اللغة العربية. فهي صيحة الوحدة أو هي كالصلاة الجامعة.

يقول الثعالبي: "من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا.. ومن أحب الرسول العربي أحب العرب.. ومن أحب العرب أحب العربية.. والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على فهمها من الديانة.. ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها، إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن لكفى".

والعربي تياه بلغته. ينظر إليها نظرته إلى الفن الجميل.. وتحتوي خزانته أو تنطوي أضالعه على الكلمة المنثورة أو البيت من القريض كأنه أنفس أعلاقه. وكما يمتع الكلام الجميل سمعه، وتأمر بصره الصورة الرائعة، يترنم بالكلمة العذبة كالموسيقى الموقعة.

فلا جرم أن اللغة العربية جماع الفنون عند العرب.

ولكم حاول أعداء الإسلام طوال القرون أن يهدموها، فما قدروا إلا على تعويق أهلها عن الأخذ بأسباب الحضارة. ودلوا على أن الأمة العربية لا ترقى بغير لغتها.

***

وليس كاللغة العربية لغة ترتبط فيها طبيعة صاحبها بطبيعة اللغة لفظا ومجتمعا.

ويصدق عليها تعبير سقراط: "إن اللغة نشاط اجتماعي". بل تعبير جابر بن حيان: "تنتقل الطبائع إلى الحروب والحروف إلى الطبائع".

فالكتابة العربية أدنى كتابة إلى الطبيعة – تجري من يمين الكاتب. ولقد طوعت للإنسان العربي أن يعالج بتعبيراته العالم الخارجي والعالم الداخلي، عالمي العمل والتأمل، أو المحسوسات، والغيبيات. فكانت المتواليات الحسابية، وعدم تناهي الأعداد، ورموز الجبر، من

استخراجات الثقافة العربية. ولم تتصد أمة لفض الحجب عن أسرار الطبيعة قدر ما تصدى المسلمون.

وهي قديمة قدم العرب الذين انبثقت منهم الشعوب، فانطلقوا إلى أرجاء العالم، في فجر التاريخ المعروف، إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب.. وهي قد وسعت أطوار الحضارة وفاقتها بغير حدود. وطاولت لغة الفرس ولغة اليونان واللغة القبطية، وغلبت عليها. وكانت وما تزال لمفاخرها أسواق تقام.. وهي اليوم، تساجل اللغات المعاصرة وتطاولها، فلا تشق لها غبارا لغة أخرى: طول عمر وسعة أفق، ووفرة لفظ وبلاغة، ونحوا وتصريفا وبيانا واشتقاقا، وقدرة على التجديد ومطاوعة للأغراض..

ولما نزل القرآن بها رفع شأنها فوق الذرى.

يقول "بروكلمان": "بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم. وبهذا اكتسبت العربية من زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى، التي تنطق بها شعوب إسلامية..".

ولقد جعلتها منزلتها من الفكر العربي والدين العربي. بشعرها ونثرها، مصدر قوة للعلماء، ووسيلة لتعميق الحفظ عند الطلاب وتثبيته. والشعر أنفذ إلى قلب العربي وأسير على لسانه.. ومن الرياضيين والفلكيين والأطباء والعلماء الطبيعيين العالميين من نظموا الشعر في العلوم، ومن كتبوا أبلغ النثر: الخوارزمي وهو فيلسوف أديب ومخترع في الجبر والحساب والفلك والبيروني وهو من خوارزم كذلك يقول: "ديننا والدولة العربية توأمان" ويكتب في الفلك والرياضيات والتاريخ والأدب.. وجابر بن حيان أول من استحق لقب كيماوي، والكندي الرياضي

الفلكي فيلسوف العرب، وابن سينا الطبيب أو الرئيس كما يسمونه، وابن النفيس الطبيب مكتشف الدورة الدموية قبل هارفي بأربعة قرون، كابن يونس مخترع بندول الساعة، قبل جاليليو بتسعة قرون – أمثال لكثيرين آخرين، كلهم أصحاب أسلوب في الشعر أو الأدب أو العلم أو المنطق أو الفلسفة. وعمر الخيام تغلب شهرته كشاعر فيلسوف على شهرته في الجبر والكيمياء. حتى الأراجيز، التي نتجت طرزها الصحراء، أمسن ترتجز في الحسان والجبر والفلك! فابن الهائم يضع رسالة بالشعر في الجبر. وابن الياسمين يضع رسالة في الحساب والجبر. وفيها:

على ثلاثة يدور الجبر المال والأعداد ثم الجذر
فالمال كل عدد مربع وجذره واحد تلك الأضلع
والعدد المطلق ما لم ينسب للمال أو للجذر فافهم تصب

والفزاري – الفلكي العظيم في عهد الرشيد – كان من أهل اللغة، له قصيدة تقوم مقام أزياج المنجمين أولها:

الحمد لله العلي الأعظم ذي الفضل والمجد الكبير الأكرم الواحد الفرد الجواد المنعم
الخالق السبع العلى طباقا والشمس يجلو ضوؤها الأغساقا والبدر يملأ نوره الآفاقا

وهي هكذا ثلاثة أقفال، ثلاثة أقفال، تدخل مع تفسيرها عشرة أجلاد.

وذات يوم أهدى أبو إسحق الصابي أسطرلابا إلى عضد الدولة في باقة من الشعر يقول فيها عن نفسه:

لـم يـرض بـالأرض مهـداة إليـك فقـد أهـدى لـك الفلـك العـالي بمـا فيـه

وألفية ابن مالك في النحو ذائعة الصيت، بين منظومات في النحو لا يكاد يحصيها، أو يحصيها، أو يحصي شروحها، عد.

وفي الفقه كثير من النظم، مثل:

وقيـــل بـــالتخيير فـــي فتـــواه إن خـــالف الإمـــام صـــاحباه

وقيـــل مـــن دليلـــه أقـــوى رجـــح وذا لمفـت ذي اجتهـاد الأصـح

أو المنظومة التي أسلفناها ومطلعها:

فعليـك يـا مـن رام ديـن محمـد بالشـافعي ومـا تـلاه وقـالا

كان الفقه الإسلامي، وما يزال، قمة لم تبلغها الشرائع المعاصرة جمعاء. وربما كان أثر الدراسات الفقهية، في خلود اللغة العربية واتساع مداها، عدلا لأثر العلوم كلها وللأدب العربي بتمامه.

***

خلص الشافعي من بيان أن القرآن عربي، إلى حكم فقهي، هو فرض تعلم اللغة العربية، وجوبا، على كل مسلم ليشهد الشهادتين ويتلو الكتاب العزيز وينطق بالذكر. فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغيره من الواجبات. فمن تعلم من اللغة العربية قدرا

أكثر كان هذا من الطاعات. قال: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها". ورتب على ذلك ما يربط الشريعة الإسلامية كلها باللغة العربية.

كان إماما في اللغة. وإماما بها: يتفرد من بين أئمة الفقه، بل الفكر، الإسلامي كله بأنه كانت له لغة تنسب إليه إذا خالفه الغير فيها صح مقاله هو، لأن لسانه لسان العرب. ولقد وجهه الإدراك العميق لأسرار اللغة والتفقه الشامل إلى أن ينظر النظرة الأصيلة، فيرفع معرفة اللغة إلى مستوى الدين: ويصيرها واجبا على المسلمين. وتلك يده على اللغة وعلى العرب وعند المسلمين: أن جعل الإسلام عربي اللسان مهما تعددت أجناس المسلمين.

وكان عربي النفس. يرى العرب متبوعين. ويرى معرفة لسانهم فرضا واجبا، والازدياد منه فرض طاعة.

لندع للشافعي – رضي الله عنه – الكلام في منزلة العروبة واللغة العربية من الإسلام. فقوله أبلغ وأنصع. قال:

"وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي: ولا يجوز – والله أعلم – أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل اللسان غير لسانه في حرف واحد. بل كان لسان تبع لسانه. وكل أهل دين قبله، فعليهم اتباع دينه.

وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه.

﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ... بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴾.

وقال: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً** ﴾.

وقال: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً** ﴾.

وقال: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾.

... وعرفنا نعمه بما خصنا به من مكانة فقال ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾.

وكان مما عرف الله نبيه من إنعامه أن قال ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ** ﴾... فخص قومه بالذكر معه بكتابه. وقال: ﴿**لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾.

وأم القرى، مكة، وهي بلده وبلد قومه، فجعلهم في كتابه خاصة، وأدخلهم مع المنذرين عامة، وقضى أن ينذروا بلسانهم العربي، لسان قومه منهم خاصة".

هكذا يترقى الشافعي من بيان أفضلية اللسان العربي وتبعية الألسن كلها له، بنفس المثل من تبعية كل أهل دين قبل النبي، لدين النبي، إلى بيان اختصاص الله تعالى للعرب بمكان من القرآن ومن إنعام الله، لأن قوم النبي جاءوا بمكان خاص في الكتاب، إذ قضى أن ينذروا بلسانهم العربي. ثم يترقى عقله الدقيق ليرتب الحكم الديني على أن اللسان العربي لسان المعجزة، وان العرب مخصوصون فيه فيقول: "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه من جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، ويتلو كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك" [٨٩].

---

(٨٩)

ولا يفتأ بترقي فيضيف خيرا لكل مسلم أن يزداد به علما، ويقرن الخير فيه بالصلاة والحج فيقول: "وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته. وأنزل آخر كتبه، كان خيرا له. كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها، ويأتي البيت وما أمر بإتيانه ويتوجه لما وجه له. ويكون تبعا فيما افترض عليه وندب إليه لا متبوعا".

***

لقد كان يقدر حق التقدير أن الذين وعوا القرآن وهو المعجزة، هم الذين صنعوا الأعجوبة بأرواحهم ودمائهم لعمق إيمانهم وقوة فهمهم. وكانوا قلة في الأمم. لكنهم نشروا الدين في جزيرة العرب وغلبوا على دول العالم المعروف إذ ذاك في سنين. ثم حملوا مشاعله، وألويته المظفرة إلى الصين وشمال فرنسا.. فهذه الحقيقة التاريخية التي تشده الفكر عند الذين لا يدركون أسباب قوة هذا الدين، هي التي تجعل الإمام العظيم، يفكر في هداية العالم كله، لمثل ما قدر عليه العرب من جراء فهمهم لأسرار المعجزة، باللسان العربي..

وبهذا يضاف إلى الإنسانية أعظم النعم. فكلما انتشر اللسان العربي انتشر الإسلام، وسرت جذوره إلى أعماق أبعد. وازداد الفهم للقرآن والسنة فزاد البشر إيمانا..

وندع الكلام ثانية للإمام، ليقول أبلغ الكلام. وما هو إلا النداء الأبدي، اليومي، للمسلمين ليعضوا بالنواجذ على اللغة التي تجمعهم وترفعهم، وتتيح لهم أن ينهضوا بتبعاتهم. وكأنما يوجه النصح لنا، الآن في عصرنا، ليدلنا على أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا با صلح به أولها:

"وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها. ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها..

فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة، نصيحة للمسلمين، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه. وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه وترك موضع حظه. وكان يجمع مع النصيحة لهم قياما بإيضاح حق. وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين من طاعة الله.. وطاعة الله جامعة للخير"..

هكذا يسمو الشافعي باللغة، فيصير إدراكها واجبا لا يصح تركه، وطاعة يثاب عليها..

وهكذا جعل الشافعي العناية باللغة العربية مسئولية إسلامية.

وذلك وجه جليل من وجوه الشمول في شخصية الشافعي وعلمه: هو أن الإسلام عنده مقترن باللغة العربية، وبالعروبة، وبالفضل الذي اختص به قوم النبي.

وإذا كان لقريش في العرب مكان الصدارة، فالعرب من صرح الإسلام هم حجارة الأساس.

والإمام الذي يجعل "العربية" عماد منهاجه هو إمام العرب والمسلمين جميعا.